الزّواج ونعمة سرّ المصالحة والتّوبة

سركيس عبّود، طالب دكتوراه (جامعة الرّوح القدس، الكسليك)

الملخّص

تتعرّض حُليّ الزّواج في زماننا الحاضر، وهي الوحدة والأمانة والدّيمومة، لموجةٍ من الشّكوك في إمكانيّة المحافظة عليها، والتّبسيط لإشكاليّة الخروج عنها إلى ما يعاكسها، بحجّة أنّ الانفتاح والعولمة، باتا تحصيلًا حاصلًا، كُسِرت معهما كلّ الحدود "والضّوابط". وكأنّ الأبواب باتت مشرّعةً أمام الانسان ليختار ما يراه مناسبًا فيعيشه. ابتعاد تدريجيّ عن الثّوابت والقِيَم والإيمان. رفض للتّعاليم الكنسيّة حسب المزاج والاختبارات، خاصّة تلك الّتي تقارب الزّواج وتضعه في مقام السّرّ المقدّس. تجاهل لِدعوات السّيد المسيح للجميع إلى عيش التّوبة والغفران والمصالحة، عوض الدّينونة والمقاطعة والانفصال عند أوّل مفترق طرق، لا سيّما في مسيرة الأزواج والعائلات.

من هنا أعود في مقالي هذا إلى التّشديد على الرّابط الوثيق بين الزّواج والتّوبة والغفران والمصالحة، منطلقًا من تعليم الكتاب المقدّس في هذا الشّأن، مرورًا بتعليم الكنيسة. ألامِس ارتقاء الزّواج من الكينونة عقدًا، نحو أسراريّته، بهدف التّأكيد على تساوي الزّوجَين في الكرامة أمام الله والنّاس وفي نظر بعضهما البعض. أضيء من بعدها على الخطيئة الثّلاثيّة الأبعاد، عنيت بها تجاه الّذات والآخر والله، لافتًا إلى مجموعة مؤشّرات تؤكّد فقدان الحسّ أو الشّعور بالخطيئة عند أزواج اليوم. لكن، وعلى الرّغم من كلّ المعوّقات، تأكيد على فرصة المصالحة والتّوبة، كدواءٍ شافٍ للكثير من المعاناة الّتي يختبرها الأزواج وتستمر معهم لو ذهبوا باتّجاه خيارات أخرى.

تأويل وتأوين، تعليم للتّحصين، ومواكبة كنسيّة للأزواج والعائلة، في شتّى المراحل والظّروف. حضور عن كثب، يتبدّى خاصّة من خلال الرّسائل البابويّة والإرشادات الرّسوليّة، الّتي تطرّقت إلى هذا الموضوع بجرأة وشفافيّة ووضوح. بلسمة للجراح أوّلًا، عرض لسلّة من الأدوية ثانيًا، وتنشيط للذّاكرة الزّوجيّة ثالثًا، فعَودٌ بالبيوت والأُسَر إلى حقيقة دعوتها الأولى في أن تكون مساحة ملؤها الإيمان والرّجاء والمحبّة.

كلمات مفتاحيّة: الزّواج، التّوبة، المصالحة، العقد، السّرّ، الخطيئة، العلاقة، النّدم، النّعمة.

مقدّمة

جَعل الرّبّ من الزّواج نظامًا أساسيًّا، فيه يكون الرّجل والمرأة على مثاله. فالرّجل وحده فيه، ليس على مثال الله ولا المرأة وحدها، بل الرّجل والمرأة معًا. وكان الرّجل للمرأة والمرأة للرّجل، وكلاهما في الله، على ما قال فيلسوفنا العظيم جبران خليل جبران: "أمّا أنت إذا أحببت فلا تقُل: "إنّ الله في قلبي"، بل قُل بالأحرى: "أنا في قلب الله""(أنظر كتاب النّبيّ لجبران خليل جبران، (١٩٢٣)، حول المحبّة، دار النّهار للنّشر). إذًا هما وُجِدا كي يُحِبّا ويُحَبّا، ومن أجل حُبّ يبحث عن المُطلق، عن العطاء، عن الله. ولكن، أين صار هذا النّظام اليوم؟

يبدو وبحسب الواقع المُعاش والمعاينة الرّعويّة، أنّ هناك أزمة علائقيّة، لا بل أزمة ثقة متبادَلة بين الاثنين، كرجل وامرأة بشكل عام، إنّما أكثر تحديدًا بين الزّوج والزّوجة، وفي مجتمعاتنا الشّرقيّة بنوع أخصّ، تنسحب حُكمًا في تأثيراتها السّلبيّة على الأولاد، في ارتباطهم الكيانيّ بوالدِيهم، وبالتّالي على النّظرة إلى هذه المؤسّسة الزّوجيّة، الواقعة هي أيضًا في عصرنا الحاليّ تحت تأثيرات جمّة، بحيث لم تبقَ بمنأى عن تَعمِية بعض القِيَم الأساسيّة، ولا استطاعت أن تجعل في ذاتيّتها مناعةً للضّمير النّقّاد لثقافة عائليّة غريبة كلّ الغرابة عن مُناخات عائلة النّاصرة!

من أبرز الدّلائل على هذه الظّاهرة، "شيوع الطّلاق ولجوء المؤمنين أنفسهم إلى عقد قران جديد، والتّسليم "بالزّواج المدنيّ"، الّذي يتعارض ودعوة المعمّدين إلى "الزّواج في المسيح"، والاحتفال بسرّ الزّواج دونما إيمان حيّ، إنّما من أجل أغراض أخرى، ونبذ القواعد الأدبيّة الّتي تهدي إلى ممارسة للعلاقة الجنسيّة في الزّواج، ممارسة إنسانيّة مسيحيّة، والعمل على ترقيتها" (يوحنّا بولس الثّاني (البابا)، (١٩٨١)، إرشاد رسوليّ، *في وظائف العائلة المسيحيّة في عالم اليوم*، الفاتيكان، الفقرة ٧).

لكن، بالرّغم ممّا طرأ على الأزواج والأسرة والمجتمع والثّقافة من تغييرات واسعة، عميقة وسريعة، إلّا أنّ هناك عائلات كثيرة، شرقًا وغربًا، لا تزال تعيش مسيرة توبة دائمة، وهي باقية على

أمانتها، ومحافِظة على القِيم فيها، الّتي تشكّل أساس المؤسّسة العائليّة (المرجع السّابق عينه)، ويتبادل فيها الزّوجان الحُبّ المُضحّي، المُخصب والشّافي. بُنيت على الصّخر، وثبتت رغم اشتداد الأمواج وارتفاع منسوب التّجارب الّتي تقضّ مضجع الأولاد ووالديهم (متّى ٧/٢٤-٢٧).

انطلاقًا ممّا تقدّم، رأيت ككاهن باحث، مؤتمن على البشارة، وعلى منح الأسرار المقدّسة باسم المسيح، أن أتناول في بحثي المتواضع هذا، إشكاليّة علاقة سرّ المصالحة والتّوبة بسرّ الزّواج المقدَّس، على قاعدة أنّ التّوبة الحقيقيّة يُعبَّر عنها بالمصالحة، وبالعودة إلى حضن الآب أوّلًا، وإلى قلب الكنيسة ثانيًا، وإلى القبول الزّوجيّ للشّريك في الكنائس البيتيّة الصُّغرى (العائلات) ثالثًا، مسلِّطًا الضّوء في عناوين أربعة، على الزّواج في فكر الله قبل سقوطه تحت حكم الخطيئة، والزّواج في تعليم الكنيسة أيضًا، متطرّقًا إلى ماهيّة الخطيئة وإلى فقدان معناها في عالم اليوم، وعارضًا لسرّ التّوبة كنعمة، من زاوية زوجيّة وزواجيّة حياتيّة صرفة، بالأخصّ لجهة الصّعوبات المتحكّمة في رغبة الأزواج في ممارسة هذا السّر، مع "لكن" دائمة، تَحول دون الإقدام على مثل هذا الفعل الشّافي للكثير من الأمراض الّتي أصابت العلاقات الزّوجيّة في الصّميم، قبل اقتراح بعض الحلول لهذه المعضلة الإيمانيّة والعلائقيّة بالأساس.

١. الزّواج في الكتاب المقدّس وفي تعليم الكنيسة

يتحدّث الكتاب المقدّس على مدى صفحاته، عن الزّواج "وسرّه" وتأسيسه والمعنى الّذي أفرغه الله عليه، ومصدره وغايته، وتطبيقاته المتنوّعة في تاريخ الخلاص، وصعوباته النّاجمة عن الخطيئة، وتجدّده "في الرّب"، على ما ورد في رسالة القدّيس بولس الأولى إلى أهل كورنثس: "تَرتَبِطُ المرأةُ بِشَريعةِ الزَّواجِ ما دامَ زَوجُها حيًّا، فإنْ ماتَ عادَتْ حُرَّةً تتزَوَّجُ مَنْ تَشاءُ، ولكِنْ زَواجًا في الرَّبِّ". إلّا أنَّها في رَأْيِــه تكونُ أكثَرَ سَعادَةً إذا بَقِيَتْ على حالِها... (١كورنثس٧/٣٩-٤٠). نحن أمام مفهوم جديد في عهد جديد، عهد المسيح والكنيسة (التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة، العدد ١٦٠٢).

١,١ من العقد إلى السّر

العلاقة الزّوجيّة إذًا، هي في قصد الله، شيء مقدّس له أهدافه وغاياته المميّزة. وهذه الشّركة العميقة في الحياة، القائمة على الأمانة والحبّ، هي مِن وضع إلهيّ منذ ظهور الإنسان على الأرض، على ما جاء في سفر التّكوين: "...وقالَ اللهُ لِنَصنَعِ الإنسانَ على صُورَتِنا كَمِثالِنا، ولِيَتَسَلَّطْ على سمَكِ

البحرِ وطَيرِ السَّماءِ والبهائمِ وجميعِ وُحوشِ الأرضِ وكُلِّ ما يَدِبُّ على الأرضِ. فخَلَقَ اللهُ الإنسانَ على صورَتِه، على صورةِ اللهِ خلَقَ البشَرَ، ذَكَرًا وأُنثى خلَقَهُم، وبارَكَهُمُ اللهُ، فقالَ لهُم أُنْمُوا وأكثروا واملأوا الأرضَ..." (تك١/٢٦-٢٨). إذًا، ذَكرًا وأنثى خلقهما، ليكمّلا بعضهما البعض ويكمّلا الخلق، مانحًا إيّاهما بركته الإلهيّة وواضعًا فيهما قوّة نقل الحياة.

جاء المسيح ليجدّد هذا السّرّ ويرتقي به إلى أسمى ممّا كان عليه. فأبقى على طابعه كعقد، وربطه بشخصه الإلهيّ، رافعًا إيّاه إلى درجة سرّ فائق الطّبيعة، أي علامة حسّيّة لنعمة غير منظورة، تفعل فعلها في الزّوجَين المعمّدَين. هو حبّ بشريّ غيّرت النّعمة وجهه، يجهد فيه الزّوجان على عيش حبّهما بصورة تامّة، ويُدرِجا في صميمه جميع جوانب حياتهما، على رجاء الدّيمومة والوفاء وتحقيق التّقدّم المتواصل (مجلّة نور وحياة، (١٩٧٥)، عدد ٣٢).

نستشهد في هذا السّياق بتعليم الرّب يسوع الحقيقة عن الزّواج في حديثه مع الفرّيسيين، وفي شرحه أنّ الحبّ الّذي هو من الله، هو ينبوع متطلّبات عميقة وجذريّة، فيذكّرهم إثر اعتراضهم متذرّعين بالشّريعة الموسويّة، أنّه لقسوة قلوبهم، أذن موسى لهم بأن يطلّقوا نساءهم، لكن، في البدء، لم يكن الأمر كذلك: "...أما قرأتم أنّ الّذي خلق من البدء خلقهما ذكرًا وأنثى وقال: "من أجل هذا يترك الرّجل أباه وأمّه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسدًا واحدًا. إذًا ليسا بعد اثنين بل جسد واحد، فالّذي جمعه الله لا يفرّقه إنسان (متّى ١٩/٤-٦).

يستطرد في نفس الواقعة حول الطّلاق ويؤكّد: "...إنّ مَنْ طلّق امرأته إلّا بسبب الزّنا وتزوّج بأخرى يزني، والّذي يتزوّج بمطلّقة يزني". قال له تلاميذه: "إن كان هكذا أمر الرّجل مع المرأة، فلا يوافق أن يتزوّج". فقال لهم: "ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الّذين أعطي لهم، لأنّه يوجد خصيان وُلدوا هكذا من بطون أمّهاتهم، ويوجد خصيان خصاهم النّاس ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السّماوات. من استطاع أن يقبل فليقبل" (متّى ١٩/٩-١٢) و(يوحنّا بولس الثّاني (البابا)، (١٩٩٤)، *رسالة إلى الأُسر*، الفاتيكان، القسم الثّاني، عدد ١٨). كلّ ذلك لأنّه يريد قداسة الزّواج والمتزوّجين، وأن يحقّق المساواة بين الرّجال والنّساء على الرّغم من أنّهم مختلفون.

٢,١ مختلفان ولكن متساويان في الكرامة

"الرّجل والمرأة خُلقا، أيّ أنّ الله أرادهما في مساواة كاملة، لكونهما شخصَين بشريَّين من جهة، ومن جهة أخرى بكيانهما الخاصّ رجلًا وامرأة. أن يكون "رجلًا" وأن تكون "امرأة"، تلك حقيقة حسنة، وقد أرادها الله للرّجل والمرأة كرامة ثابتة تأتيهما مباشرة من الله خالقهما. الرّجل والمرأة هما، في الكرامة الواحدة، على صورة الله، وما كان الله على صورة الإنسان البتّة، أمّا هما فيعكسان حكمة الخالق وجودته في كيان "الرّجولة" وفي كيان "الأنوثة"، لا بل شيئًا من كماله الغير المتناهي، لا سيّما فيما يخصّ نعمة الأمومة والأبوّة، وحالة الشّراكة الزّوجيّة". (التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة، العدد ٣٦٩ و٣٧٠).

وفي أعقاب تعليم الكنيسة الرّسميّ، يستفيض البابوات ولا سيّما بابا العائلة القدّيس يوحنّا بولس الثّاني بالتّركيز على تلك العظمة النّاشئة عن المساواة في الكرامة بين الرّجل والمرأة على قاعدة تشبيه العلاقة بين المسيح والكنيسة بتلك الّتي تربط بين العريس والعروس، أو الزّوج والزّوجة، انطلاقًا من الرّسالة إلى أهل أفسس حيث يقول رسول الأمم: "... ليخضع بعضكم لبعض بمخافة المسيح (أفسس٥/٢١)، ... وكما تَخضع الكنيسة للمسيح، فلْتَخضَعِ النِّساءُ لأزواجِهِنَّ في كُلِّ شيءٍ. ويا أيُّها الرِّجالُ، أحِبُّوا نِساءَكُم مِثلَما أحَبَّ المَسيحُ الكنيسَةَ وضَحَّى بِنَفسِهِ مِنْ أجلِها (أفسس٥/٢٤-٢٥)، ... إنّ هذا السِّرّ عَظيمٌ، وأعني بِه سِرَّ المَسيحِ والكنيسَةِ..."(أفسس٥/٣٢).

عليه، يرشدنا دستور "الكنيسة في عالم اليوم" إلى الطّريق الواجب اتّباعه، للوفاء بالالتزامات المترتّبة على كرامة المرأة والرّجل ودعوتهما، في إطار تغيّرات عصرنا الهامّة، حيث لا يمكننا مواجهة هذه التّغيّرات بطريقة صحيحة ومُجدية، إلّا بالرّجوع إلى الأسس الثّابتة في المسيح، وإلى الحقائق والقِيَم "الدّائمة" الّتي يبقى هو نفسه "الشّاهد الأمين" لها وسيّدها. وكلّ أسلوب آخر في التّعاطي مع هذه التغيّرات، يقودنا إلى نتائج مشكوك فيها، إن لم تكن قطعًا خاطئة وخادعة (يوحنّا بولس الثّاني (البابا)، رسالة رسوليّة، *كرامة المرأة*، القسم الثّامن، الفقرة ٢٨).

٣,١ مشهديّة عرس قانا الجليل

مُلفت صُنع يسوع عند عتبة حياته العلنيّة، أوّل آية له – بطلب من أمّه – خلال عرسٍ في قانا الجليل. وتُولي الكنيسة أهمّيّة كبرى لحضور يسوع في هذا العرس، وترى فيه تثبيتًا لجودة الزّواج، وإيذانًا بأنّ الزّواج سوف يكون آيةً فعّالة من آيات حضور المسيح (التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة،

العدد ٢٢٠٥)، شريطة أن يقوم الأزواج باستمرار بالجردة اللّازمة على مستودع الخمر الخاص بهم، ليتأكّدوا من وجود خمرة جيّدة، معترفين بأنّ مؤونتهم قد تنقص، لا بل قد تنفد، وأنّ الحياة الإلهيّة الّتي أتانا بها المسيح والّتي ترمز إليها خمر العرس، قد تصبح يومًا ضعيفة وفقيرة في نفوسهم، وينقصها هذا التّدفّق الّذي من شأنه أن يروي حياة كلّ من الزّوجَين، وحياتهما معًا، لا بل وحياة الآخرين المحيطين بهما.

لقد ظهر المسيح بصفته رسول الحقيقة الإلهيّة عن الزّواج في عرس قانا، تلك الحقيقة الّتي يمكن أن ترتكز عليها الأسرة البشريّة، فتنوجد فيها القدرة الكافية لمواجهة مصائب الحياة. يعلن يسوع هذه الحقيقة بحضوره، وباجتراحه أولى "عجائبه": الماء المحوّل خمرًا، ما يُعطي المناسبة طابع التّجلّي والإيمان والأسرار بشكل واضح. قد يقول أحدهم: "إنّ قدوم يسوع وتلاميذه كلّهم إلى قانا، قد تسبّب ربّما في حصول النّقص في الخمر"! لكن الباحث في العمق يجد أنّه لم يكن قدومًا عاديًّا، بل يندرج في نطاق الانتظار المسيحانيّ لشعبٍ بكامله. بدأ النّاس، قبل ذلك، يتحدّثون عن يسوع مذ سمعوا بشارة يوحنا المعمدان الّتي هزّت فلسطين، ممّا يفسّر سلطة أمّه مريم الّتي تجاوزت المُشرف على الوليمة. أمّا لماذا تدخّلت؟ وهل هي رغبة منها في إنقاذ العروسين من الخجل؟ قد يكون ذلك، ولكن ثمّة أمر آخر أكثر أهمّية، إذ كانت مريم تهدف إلى تجلّي يسوع وإلى إيمان تلاميذه به في أعقاب المعجزة. وهذا هو المغزى الذي خَلُص إليه القديس يوحنّا من تلك الحادثة: "هذه أولى آيات يسوع أتى بها في قانا الجليل، فأظهر مجده فآمن به تلاميذه" (يوحنا ١١/٢).

غالبًا ما تكون قراءتنا للإنجيل سطحيّة، إذ نميل إلى التوقّف عند معناه النّفسيّ، وحدث قانا مثالٌ على ذلك. ماذا نرى للوهلة الأولى؟ نرى عرسًا تنقص فيه الخمرة ونرى امرأة، هي مريم، تلتفت إلى الآخرين وتلاحظ هذا النّقص، فتطلب إلى ابنها أن يتدخّل، وهذا ما فعله بطريقة غير مألوفة. لا بأس في ذلك، إنَّما هناك أمر أهمّ بكثير: فتاريخ الخلاص كلّه يندرج في هذه الحادثة الّتي قامت فيها مريم بدورها، بحيث أتى تدخّلها حاسمًا، "لصالح العروسَين والمدعوّين كافّة"، وكان جواب يسوع غريبًا فعلًا شغل العديد من شرّاح الإنجيل في الماضي ولا يزال يشغلنا إلى اليوم، فقد كان موجَّهًا مباشرة إلى إيمانها: "ما لي ولك أيتها المرأة؟ لم تأتِ ساعتي بعد"!

بتعبير آخر، أراد يسوع أن يقول: سوف أنجِز ما تطلبين منّي فأُظهِر مجدي كما تتمنّين، لديمومة الفرح في البيوت ولا سيّما الحديثة العهد. وبالفعل، لم تتردّد مريم في فهم معنى جوابه، فقالت للخدم: " افعلوا ما يأمركم به". ولكنّ يسوع، في الوقت عينه، حذّر مريم من سوء تأويل هذه الآية قائلًا: "لم تأتِ ساعتي بعد"، وهذه السّاعة لا يعرفها أحد سوى الآب وسوف تتألّق مجدًا على الصّليب. أمَّا مريم فهي في ساعة قانا، في أوّل ظهورٍ لابنها، لم تصل بعد إلى ساعة الصّليب الّتي تلقّت نبأها في الإيمان. في تلك السّاعة، ساعة الصليب، ستكون حاضرة كذلك، وسوف يناديها يسوع مرّة أخرى: "أيّتها المرأة"، بينما يتحقّق العرس الأزليّ بين الله والجنس البشريّ، العرس الّذي رمز إليه عرس قانا. ففي قانا، كانت مريم موضع تعليم ابنها الّذي أراد إدخالها كليًّا في مخطّطه، وهو يريد الأمر عينه لنا اليوم، ولكن بالأكثر للأزواج والعائلات.

كأزواج، قد يعترض بعضهم قائلًا: " إذا سلّطتم الأضواء على ما ينقصنا، ألن يؤدّي ذلك إلى فتور همَّتنا؟ ألن تتسبَّبوا في تحطيم حافز ثقتنا بأنفسنا الّذي يجعلنا نتصرَّف في حياتنا الرّوحيّة كما في حياتنا العاديّة؟". في الواقع، لو اقتصرت نظرتنا على ما ينقصنا لكان المعترضون على حقّ، إلّا أنَّ نظرتنا تترافق مع نظرة أخرى تتجّه نحو المسيح الّذي يأتي ليتمّم ذلك النّقص. لقد توجّهت مريم إلى يسوع قائلة: "لم يبقَ عندهم خمر". ونحن أيضًا سنعي حدودنا وأخطاءنا في نور يسوع وتحت نظرة أمّنا مريم، ممّا سيغيّر الوضع كلّه. فما نفقده من الثّقة بالذّات نسترجعه في ثقتنا بالمسيح. وسيدفعنا شعورنا بالعجز إلى اللّجوء إلى أحضان الله الأبويّة.

في المختصر، الحياة المسيحيّة تحمل كلّها طابع الحبّ الزّوجيّ القائم بين المسيح والكنيسة. فالمعموديّة – وهي المدخل إلى شعب الله – هي أيضًا سرّ عرسيّ. إنّها نوعًا ما، "ماء الاستحمام"، الّذي يسبق وليمة العرس، أيّ الإفخارستيّا. ويصبح الزّواج المسيحيّ، هو أيضًا، علامة فاعلة، وسرّ العهد المُبرَم بين المسيح والكنيسة. وبما أنّ الزّواج بين المعمّدين هو عبارة هذا العهد ووسيلة نعمته، فهو سرّ حقيقيّ من أسرار العهد الجديد (التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة، العدد ١٦١٣)، ولو سقط فيه الأزواج من حين إلى آخر تحت حكم الخطيئة.

٢. الزّواج تحت حكم الخطيئة

نؤمن بأنّ الله محبّة. إذًا، فهو خلَق عن محبّة، ولقد خلق الإنسان سيّدًا على الكون، على صورته ومثاله خلقه، عاقلًا وحرًّا مثله، ليقدِر على التّجاوب مع حبّه، ولكي يعقد معه علاقة اتّحاد، عهدًا، بكلمة، ولكي يحوّل الكون مُلكًا لهذا الحُبّ. هذا ما يدعوه الكتاب المقدّس: "حُبّ الله". وفي رأيي، ما الحُبّ البشريّ إلّا قبسًا من هذا الحُبّ الإلهيّ. غير أن الإنسان لم يستطع أن يبقى أمينًا لهذا الحُبّ، وبدلًا من ذلك تحوّل إلى الكون وانشغف به، مبتعدًا عن الله الخالق، غارقًا في المخلوقات، فأجحف بحقّ الإنسان أخيه وشريكه، والعظم من عظامه، واللّحم من لحمه، خارجًا عن إطار حبّ الله له وساقطًا في عبوديّة الخطيئة. فما هي ماهيّتها يا ترى؟

١,٢ ماهيّة الخطيئة

هي رفض الحبّ العجيب الّذي يكنّه لنا الله في الوحي، إنّها الرّفض أو على الأقل الفشل الجزئيّ والمؤقّت لدعوتنا الإلهيّة. الخطيئة هي ألّا تكون قلوبنا وسيرتنا على مستوى مصيرنا. هي ألّا يكون لنا قلب ابن، قلب إله. من هنا كلّ مسيحيّ خاطئ، هو في حالة البُعد عن هذا الحبّ الإلهيّ المُترجَم في محبّة الشّريك، ومحبّة القريب. "إذا قال أحد إنّي أحبّ الله وهو لا يحبّ أخاه كان كاذبًا (...)"(١يوحنّا٤/٢٠).

جاء في التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة حول حتميّة السّقوط أنّه "من المُسلَّم به أن يختبر الإنسان الشّرّ حوله أو في ذاته. وهذا الاختبار نقع عليه أيضًا في العلاقات ما بين الرّجل والمرأة، بين الزّوج والزّوجة. لقد بات قرانهما اليوم عرضة للخلافات أكثر من الأمس، بسبب روح التّسلّط، والخيانة والغيرة الّتي تولّد صراعات قد تصل إلى حدّ الكراهية والقطيعة. هذه "الفوضى" إن جازت تسميتها، قد تظهر بقليل أو بكثير من الجدّة، وقد نتغلّب عليها قليلًا أو كثيرًا، بحسب الثّقافات والأزمنة والأفراد، إلّا أنّها تبدو ممهورة بطابع شامل" (التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة، العدد ١٦٠٦)، بما معناه، أن جُلّ مَن لا يخطئ، والعار ليس أن يسقط الإنسان بل أن يبقى حيث سقط. الثّابت أنّها خطيئة ببُعدَين عاموديّ وأفقيّ.

٢,٢ الخطيئة وطبيعة علاقة الإنسان بالله (البُعد العاموديّ)

مُنذ أن وُجِد الإنسان، وبعد السّقطة الأولى، طبعت الخطيئة وجوده بموازاة النّعمة الممنوحة له، وفُرَص العودة عنها الّتي أُتيحت له في تاريخه كلّه. "وقد يكون من العبث محاولة تجاوزها، أو

إلقاء أسماء أخرى على هذه الحقيقة الغامضة. ولكن في محاولة فهمها، يجب أوّلًا معرفة صلة الإنسان بالله، إذ إنّه خارج هذه العلاقة، لا يُكشف عن شرّ الخطيئة في حقيقة كونه رفضًا ومقاومة في وجه الله، مع بقائه عبئًا ثقيلًا على حياة الإنسان وعلى التّاريخ" (المرجع السّابق عينه، العدد ٣٨٦). فكلّما تقرّب من خالقه ازدادت مناعته وقدرته على عدم الوقوع في حبائلها، وكلّما بعُدَ عنه كان السّقوط حتميًّا ومدويًّا.

إذًا، حقيقة الخطيئة، ولا سيّما خطيئة الأصول، لا تتّضح إلّا على نور الوحي الإلهيّ، وبالأحرى على ضوء معرفتنا وتعمّقنا بما جاء في الكُتُب المقدّسة الموحاة. فبدون المعرفة الّتي يعطينا إيّاها الله، لا تمكن معرفة الخطيئة معرفة واضحة، ويصعب التّمييز وإصدار الأحكام، ونكون معرّضين لتفسيرها على سبيل المثال لا الحصر، على أنّها نقص في النموّ فقط، أو ضعفٌ نفسيّ مثلًا، أو نوع من الضّلال، أو نتيجة حتميّة لبُنية اجتماعيّة غير ملائمة (...). تكثر التّفسيرات والتّحليلات، وتبقى الحقيقة السّاطعة أنّه في معرفة قصد الله بالنّسبة إلى الإنسان فقط، تُفهم الخطيئة على أنّها "سوء استعمال للحرّيّة الّتي يمنحها الله للأشخاص المخلوقين، لكي يتمكّنوا من محبّته ومن محبّة بعضهم البعض" (المرجع السّابق عينه، العدد ٣٨٧). وفي كلّ مرّة يخرجون عن هذه القاعدة يُسهمون بشكل أو بآخر في تشويه دعوتهم، والصّورة الّتي وُجدوا أصلًا كي يعكسوها على طبيعة علاقتهم ببعضهم البعض.

٣,٢ الخطيئة وطبيعة العلاقة بين الأزواج (البُعد الأفقيّ)

تبقى المقاربة الأجمل كتابيّة الطّابع على هذا الصّعيد، حين تُشبَّه العلاقة بين الله وشعبه بعلاقة الرّجل بالمرأة، بالأحرى الزّوج بزوجته وكلّ ما تستتبعه هذه العلاقة من وحدة وحبّ وأمانة (الكتاب المقدّس، (٢٠٠٩)، مقدّمة سفر نشيد الأناشيد، دار المشرق، بيروت، الطّبعة الثالثة). ويعلّمنا الإيمان أنّ التّشويش الّذي نلمسه لمسًا أليمًا على مستوى الحياة الزّوجيّة، لا يأتي من طبيعة الرّجل والمرأة، ولا من طبيعة علاقتهما، بل من الخطيئة. فالخطيئة الأولى هي مقاطعة لله، وأولى نتائجها تصدّع الشّركة الأصليّة بين الرّجل والمرأة. علاقتهما تشوّهت باتّهامات متبادلة، وميل أحدهما إلى الآخر، وهو الهِبة الّتي حباهما بها الله نفسه، تحوّل إلى علاقات تسلّط وشهوة، ودعوتهما الجميلة إلى الخصب والتّكاثر وإخضاع الأرض أمست مرهَقة بأوجاع الولادة وكسب الرّزق (سفر التّكوين١ – ٣).

كما في البدايات كذلك اليوم، مؤشّرات عديدة في عالمنا المعاصر تدلّ على خطورة فقدان حسّ الخطيئة عند الأزواج، لا سيّما الجُدد منهم، جرّاء أوضاع معقّدة وحالات صعبة، ومناخات ملبّدة، لأفكارٍ أو أقوالٍ أو أعمال، قد يقومان بها، ولكن دون التّمييز فيها بسهولة، أو التّيقّن أنّها خطيئة أم لا. فهل من علامات إضافيّة يمكن أن تأكّد ارتكاب خطيئة أو عدم ارتكابها؟

٣. علامات فقدان حسّ الخطيئة عند أزواج اليوم

يمكننا اعتبار الخطيئة بين الأزواج، إساءة إلى عقل الآخر وحقيقته وإلى الضّمير المستقيم عنده، وهي بالتّالي إجحاف بالمحبّة، بسبب تعلّق أثيم ببعض الخيور ربّما، أو لأسباب أخرى، ما يجرح طبيعة الإنسان ويؤذي التّضامن والوحدة ويؤثّر على الدّيمومة. لإبراز أهمّ العلامات على فقدان هذا الحسّ، نستعين بآراء الأبّ كزافييه تيفينو (Thévenot Xavier, (1992), les péchés-que-peut-on en dire) من كتابه "الخطايا وما أدراك" ترجمة الأرشمندريت أنطوان نصر، ونختار أربعًا منها أساسيّة في هذا المجال:

١,٣ العلامة الأولى: مخالفة الوصيّة

"هي تَعدٍّ على وصيّة إلهيّة أو مانع أدبيّ أو شريعة اجتماعيّة (...)، وليس من السّهل تحديد العلاقة بين المخالفة والخطيئة. يمكننا القول إنّ كلّ خطيئة هي مخالفة، ولكن ليس كلّ مخالفة هي خطيئة. فأحيانًا المخالفة ليست إراديّة، وأحيانًا أخرى يجهل الشّخص أنّ هذه المخالفة تؤثّر في علاقته بالله والشّريك" (https://www.chjoy.com/vb/showthread.php بحث جرى في ٤ حزيران ٢٠٢٢)، علمًا أنّ أثرها يكون ظاهرًا جدًّا، ولنقُل عمليًّا هذا يتجلّى بين الإثنين بالفكر أو بالفعل أو بالقول، ويتحوّل الأمر إلى عادة معطوف عليها عدم المجالسة للحوار حوله، فيتكرّس واقعًا وكأنّه قاعدة حياة، ويتحمّل أحد الشّريكَين إلى حدّ الانتكاسة إن لم نقل الانفجار!

من الأمثلة الأكثر شيوعًا، تراكم قلّة انتباه أحد الشّريكَين للآخر. وعلى قاعدة "حفظته أو حفظتها غيبًا"، يصيب الشّح الالتفاتة الدّافئة للآخر تدريجيًّا، ويغيب الاصغاء إلى ما يقوله أو بالحريّ ما ينطوي عليه كلامه. تنطفئ محرّكات الشّعور بشيء تجاه ما يبدر عنه من خلال مواقفه أو ملامح الوجه، ويتوقّف البحث عن أماني الشّريك الحقيقيّة والعميقة، فتتعطّل الحيويّة الحبّيّة. قلّة اكتراث،

إصغاء أقلّ للمُعاش خارج إطار البيت الزّوجي من أنشطة ونجاحات، أو من صعوبات وإخفاقات وحتّى لقاءات، والنّتيجة الأكيدة، قمع مميت للحُبّ.

على أنّ المخالفة قد تأخذ منحًى مُعاكسًا تمامًا لما سبق ذكره، فيُبالغ أحد الطّرفَين في الاهتمام بقرينه، إلى حدّ ارتفاع منسوب الشّك والتّحرّيات والبحث والتّدقيق والتّفتيش، كظواهر لقلّة الثّقة بالآخر، فترهقه كثرة الأسئلة الّتي إذا ما بدأت لا تعود تعرف نهاية لها، لتجنح الأمور صوب إظهار للتناقضات في كلّ ما يفعله أو ما يقوله، على حساب المحبّة الواثقة به. غيرة، خوف واختناق، وانجرار إلى إثارة الشّكّ من جهة والتّستّر والمخادعة الغير مرغوب بها أساسًا!

٢,٣ العلامة الثّانية: الانحرافات القديمة الجديدة

هي حالة شخصيّة أو ميل في الكيان الدّاخليّ، يجد الإنسان من خلالها أنّه في وضع لا يتطابق مع قاعدة سارية في المجتمع الّذي يعيش فيه. وأنواع الانحراف متعدّدة، وقد تصل إلى الميدان العاطفيّ، كالتّوق إلى التّواصل الجنسيّ بطرق غير طبيعيّة، والقبول بحالات الشّذوذ المتنوّعة، قبل الزّواج، فيه وبعده (المرجع السّابق عينه). والحال أنّ الكنيسة تعتَبر أنّ الإنسان المنحرف يبقى شخصًا محبوبًا من الله، وعليه أن يعمل ما بوسعه بمؤازرة النّعمة ومساعدة الآخرين على التّخلّص من انحرافه. ومَن أَولى من الشّريك في مثل هذه الحالة ليساعد شريكه السّاقط على الخروج من هذه الحالة، فيتقدّسان معًا تحت نظر المرشد الرّوحيّ، أو من يريانه مرافقًا مناسبًا للحالة المحدّدة، فيشفى الاثنان، ويصفح كلّ منهما عن الآخر كما صفح المسيح عن المرأة الخاطئة، وتحوّلت بعدها إلى مرافِقة للرّسل في عمل البشارة! (لوقا٧/٣٦-٥٠).

أمّا بدايات خطر الانحراف، فتعود إلى ازدياد مضطرد في قلّة الثّقة بين الطّرفَين، قبل الوصول إلى انعدامها، وتُترجم انعكاساتها السّلبية حتمًا على علاقة القرينَين الجنسيّة، وبالتّالي على نموّ وتجدّد حبّهما لبعضهما المُحصَّن بانفتاحهما الزّوجيّ. إضافة إلى ذلك، فإنّ شائبة عدم السّيطرة الجنسيّة هي الأخرى تضرّ حُكمًا بديناميّة الزّوجَين وبحيويّة علاقتهما بالله، على قاعدة أنّ هناك أخلاقيّة جنسيّة ولو أنكرها بعض النّاس أو تناسوها. والثّوابت تبقى في أنّ عطاء الذّات الكليّ في الإتحاد الجسديّ يتطلّب كثيرًا من الثّقة المتبادلة، وحرّيّة داخليّة كبيرة يساعد الحبّ على اكتسابها وعلى تقويتها تدريجيًّا.

٣,٣ العلامة الثّالثة: آلام وجِراح

من النّاس من يعتبر أنّ هناك معادلة بين الألم والخطيئة(...)، وإذا تألّم أحد فلا بدّ أن يكون قد أخطأ هو أو شريكه. هذا الاعتبار رفضه يسوع في قصّة الأعمى (يو٩/١-٤١). حتّى الكنيسة تدعو مؤمنيها إلى التّمييز بين الآلام الطّبيعيّة أو المفروضة علينا من قِبل الطّبيعة، وبين الألم الأدبيّ النّاتج عن الخطيئة (المرجع السّابق عينه). هنا تُلاحَظ ضبابيّة في قراءة الأُسَر للفشل أو الأوجاع الجسديّة والمرض، والتمزّقات الناجمة عن تعثّر المشاريع، وصولًا إلى الخوف المستمرّ من مجابهة الموت، لكن هذه كلّها تبقى ناتجة عن طبيعة الإنسان المحدودة. وكم سمعنا ورأينا أزواجًا يتعرّضون لتجربة ترك الشّريك جرّاء إصابة جسديّة أدّت إلى إعاقة ما، الأمر الّذي يدفع مَن كان بالأمس بينهما يعبّر عن الحبّ حتّى الموت، إلى الإعلان عن عدم القدرة على المتابعة والرّغبة في الانفصال، فيزيد الألم ألمًا والموت رغبة عند الشّريك المصاب، ما يهدّد مباشرة الرّابطة الزّوجيّة ويعرّضها للنّزف والتّفكّك والشّرذمة!

٤,٣ العلامة الرّابعة: ضآلة الشّعور بالذّنب والنّدم

مرارًا ما نسمع مقولة "أنا لا أشعر بالنّدم"، إذًا "أنا لم أفعل شرًّا"! أو أنا أشعر بندم كبير "فخطيئتي إذًا عظيمة جدًّا". لكن ما يحصل غالبًا هو أنّ قلّة الشّعور بالذّنب أو تزايدها لا يتوافقان تمامًا مع جسامة الخطيئة المرتَكَبة (المرجع السّابق عينه). فإذا كان لا بدّ للخاطئ أن يشعر بالنّدم، فإنّه لا يمكن أن يُقيِّم حالته الخاطئة ارتكازًا على هذا الشّعور وحده، بل أيضًا ارتكازًا على حالة الشّريك، جرّاء الألم الّذي سبّبه له. وفي كلّ الأحوال يبقى النّدم (ومن ثمّ الشّعور بالذّنب)، منبِّهًا مهمًّا إلى وجود الخطيئة، ينقصه الجرأة والشّجاعة والحبّ النّاضج، كي يُعلن عن الأمر، فيردم الهوّة الّتي تكون الخطيئة قد بدأت بحفرها بين الإثنين وفي اتّجاهَين معاكسَين كي لا يلتقيا أبدًا في منتصف الطّريق، ويحصل ما لا تُحمَد عُقباه!

في وجيز الكلام، إنّ الغرق في الحياة العصريّة المليء بصوَر جديدة غريبة عن الثّوابت العلائقيّة والرّوابط الزّواجيّة الأصيلة، وتبنّيها بدون غربلة، والغرق في الحياة العمليّة الوظيفيّة على حساب التّوازن العاطفيّ الزّوجيّ، يدفعان الأزواج إلى تبنّي قِيَم غير مسيحيّة، يُضاف إليهما عدم الوعي باكرًا لمتطلّبات وملزمات الزّواج وعدم النّضوج الفكريّ، كذلك عدم وجود تربية على الحسّ بالعلاقة

مع الرّبّ كثانٍ لإثنين هما أساسًا في الزّواج واحد. كلّها مجتمعة، وغيرها الكثير مما لا يمكن سرده في بحثٍ مختصر، تُسهم في الفقدان لمعنى الخطيئة اليوم، دون أن تؤثّر هذه الخطيئة على المفهوم الأصليّ والغفران اللّذَين فيهما الحقيقة وليس فيها وحدها، على اعتبار أنّ سرّ التّوبة يبقى نعمة في سرّ الزّواج وله. فما هو الرّابط بينهما؟ (تيفينو كزافييه، (١٩٩٢)، *الخطايا وما أدراك*، نقله إلى العربيّة الأرشمندريت أنطوان نصر).

٤. الزّواج ونعمة سرّ المصالحة والتّوبة

تُعلّم الكنيسة في المجمع الفاتيكانيّ الثّاني "أنّ الله لم يتخلّ يومًا عن الإنسان الخاطئ. وسرّ التّوبة يبقى عملًا خلاصيًّا تقوم به الكنيسة الّتي أسّسها المسيح، به تدعو الخاطئ، البعيد والخارج من الشّركة في سرّ الكنيسة الخلاصيّ، إلى الانفتاح على سرّ يسوع المسيح ابن الله المتجسّد، المائت والقائم من القبر، فيسلّم ذاته لحكم الله الّذي يقدّم له نعمة الغفران والمصالحة من خلال إعادة إدخال الكنيسة له في شركتها" (دستور في اللّيتورجيّا، عدد ٧٣).

هذا على المستوى الإيمانيّ العقائديّ التّعليميّ. أمّا على المستوى التّطبيقيّ، فممارسة هذا السّرّ تصطدم بصعوبات ومعوّقات جمّة، لا بدّ من الإشارة إلى بعضها سيّما المرتبط منها بالأزواج تحديدًا، قبل طرح الحلول. (www.peregabriel.com، بحث جرى في ٤ حزيران ٢٠٢٢، أنيس أبي عاد (المطران، مقال في سرّ المصالحة والتّوبة).

١,٤ صعوبات ممارسة سرّ المصالحة والتّوبة

كثير من المؤمنين، وبالأخصّ المتزوّجين ولأسباب وتبريرات لا تُعَدّ ولا تُحصى، ابتعدوا عن هذا السّر لأنّهم لا يرون فيه بعد عملًا جدّيًّا للخلاص. من هنا كانت الدّعوات الملحّة لتجديد ممارسة هذا السّر، بعد أن أوصى المجمع الفاتيكانيّ الثّاني بهذا الأمر وقال: "يجب إعادة النّظر في رُتب سرّ التّوبة وصيَغه بحيث تعبّر بطريقة أوضح عن طبيعة هذا السّرّ ومفعوله" (المرجع السّابق عينه). نختصر فيما يلي الصّعوبات النّفسيّة الّتي تعترض الكثيرين وتقف حائلًا دون ممارستهم الدّائمة لهذا السّر:

١,١,٤ نقص الجرأة في مواجهة الذّات

أزواج عديدون، يخافون من مواجهة ذواتهم والدّخول إلى أعماقها، كي لا يَروا الظّلمات الدّاخليّة فيفزعون. لذلك يلقون باللّائمة دومًا على الشّريك، ويديرون وجوههم نحوه، ويعتقدون أنّ المشكلة قد حُلّت. غير أنّ الهروب من الذّات هو كسياسة النّعامة! فإذا كانت الخطيئة مميتة، فلا ينفع الهروب منها، لأنّها تبقى في الضّمير أداة تأنيب واضطراب. وإلّا إذا فسُد الضمير كلّيًا، فلا يبقى للمؤمن إلّا نعمة الله الخاصّة، شرط ألّا يهرب منها التّائب عندما تحلّ عليه. أمّا الأنسب فهو مراجعة الحياة اليوميّة فرديًّا وثنائيًّا بُغية الانطلاق في اليوم التّالي دون رواسب تُذكر أو تراكمات.

٢,١,٤ التّبسيط للمُرتَكَب والتّعميم

من الأزواج من يرى الأعمال والأقوال الّتي اعتاد عليها المجتمع، بأنّها "عاديّة". لا بل قد يعطيها معنى إيجابيًّا: "شطارة"، "بدنا نعيش"، "ليش لأ"، "شو أنا تجاه غيري من الرّجال أو النّساء" (...)؟ لذلك، فَهُم لا يشعرون بأنّهم خطئوا أو ابتعدوا عن الله! وهناك آخرون عن طيب نيّة يقولون: "ما عندي خطايا، ما سرقت ولا قتلت، ولا زنيت، وأنا "ما بدخّن ولا بلعب بالقمار، وشو بدّا بعد أحسن من هيك"؟

يبدو القِسم الأوّل من هذه الصّعوبة، أشبه بالمزاح منه بالحقيقة! فلا صمود أمام ارتكاب خطيئة ثقيلة. أمّا القسم الثّاني فلا يمكن في فحص الضّمير تجاهل مقاربة الشّر والخطيئة، والأفضل القياس بمقياس واحد هو تعاليم السيّد المسيح الواضحة والدّاعية التّعِبين كي يأتوا إليه فيرتاحوا. (متّى١١/٢٨).

٣,١,٤ الخجل من الإقرار بالمُرتَكَب

قد يكون هذا هو العائق الأهمّ. لذلك منهم من يقول إنّ المسيح أوصى بالتّوبة لا بالإقرار، ومنهم من يطالب بتبديل صيغة الإقرار وتخفيفها، فتصبح كما هو معمول بها في بعض الكنائس (يعطي الكاهن الحَلّة فقط، أمّا الإقرار فضمنيّ بين التّائب والرّب).

عند الكاثوليك، مَنحُ المغفرة يتطلّب معرفة ما في قلب الخاطئ ليُمكن حلّه ومصالحته وشفاءه. والعلوم الإنسانيّة، وبخاصّة تلك الّتي تتعاطى التّحاليل النّفسيّة، تتطلّب هي أيضًا إقرارًا كاملًا من قِبل الشّخص المقبل عليها للاستفادة منها. وهذا الإقرار السرّيّ، ينتزع في الوقت عينه الخطيئة نوعًا ما من أعماق القلب الخفيّة، ويشدّد على طابع الخطيئة الشّموليّ، وهذا يحتاج إلى تنشئة دائمة حول سرّ التّوبة

وعظمته، بعد الفتور الحاصل في الإقبال عليه، لا سيّما عند الأزواج، بحجّة تعب الأيّام "واللّاشيء عندي"، فقط بعض التّعب والعصبيّة وما هو طبيعيّ في كلّ بيت، وغيرها الكثير(...)!

٤,١,٤ الحَرَج من الحضور أمام الكاهن

خوف من المواجهة، أو من داعي كشف الذّات أمام إنسانٍ آخر! يعتقد الأزواج وعامّة النّاس أيضًا، أنّ الكاهن بعد الاعتراف سوف ينظر لنا نظرة توحي بأنّنا مكشوفون أمامه، ويصرّح آخرون قائلين: "مَن هو هذا الكاهن الملاك والقدّيس لكي أعترف له بخطاياي"؟ عند هذا الحدّ، لا بدّ من الأخذ بعين الاعتبار لشخصيّة الكاهن، لأنّه شخص مميّز في الكنيسة. هو حامل سرّ الكهنوت المقدّس، الّذي يصيّره أخًا روحيًّا ومعلّمًا وأبًا، ويمنحه سلطان الحلّ والرّبط وهذا ليس بقليل. بالإضافة إلى أنّه مُلزَم كلّيًّا بالحفاظ على سرّ التّائب حفاظًا تامًّا. ومن واقع التّجربة، فإنّ هناك نوعًا محدّدًا من الخطايا دون سواه، يدفع بمرتكبها إلى التّحجّج بمثل هذه الأعذار، كالخيانة والزّنى والكذب، سيّما في الشّؤون الماليّة والعلائقيّة والعاطفيّة وغيرها.

خلاصة القول، أن نشترك في قداسة الله، مشروع يفرض على الإنسان تغييرًا كاملًا يشمل جميع نواحي حياته. هذا التّغيير هو حتميّ يفرضه القرار الّذي يتّخذه الإنسان تجاه عمل المسيح الخلاصيّ فيتغيّر من إنسان ساقط، بعيد عن الله إلى إنسان متجرّد متّحد به. وهذا التّغيير يتمّ بالسّعي للسموّ إلى "ملء قامة المسيح" (أفسس١٣/٤). هذا هو عمل التّوبة النّاتج عن المصالحة مع الله التّي أتمّها ابنه يسوع بتجسّده، وهذا ما يمكن للأزواج أن يرفعوا بعضهم البعض نحوه بثقة، على ما جاء في التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة: "إنّ للأزواج المسيحيّين، في وضعهم الحياتيّ وفي حالتهم، مواهبهم الخّاصة في شعب الله. هذه النّعمة الّتي يختصّ بها سرّ الزّواج تهدف إلى رفع الحبّ بين الزّوجَين إلى درجة الكمال وتمتين وحدتهما غير المنفصمة. بهذه النّعمة يتعاون الزّوجان في تقديس ذاتهما في الحياة الزّوجيّة، وفي إنجاب البنين وتربيتهم" (التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة، العدد ١٦٤١).

٢,٤ مؤشّرات عيش التّوبة والمصالحة والغفران بين الأزواج

يتبادل الزّوجان الحبّ الحقيقيّ المضحّي والمُخصب والشّافي إذا ما عاشا بإيمان المصالحة والتّوبة والغفران. وعلى الرّغم من "الهشاشة" أحيانًا في مواجهة بعض التّحدّيات، فالحبّ قويّ وثابت

ويحتاج إلى التّحصين والحماية من العدوَّين اللّدودَين: الخارجيّ وهو الخيانة، والدّاخليّ وهو الاستهلاك، بمعنى التّسليع للشّريك، عوض التّكميل والتّضميد والكينونة في حضور وجاهزيّة للشّراكة على مختلف الأصعدة والمستويات. يُتقِنا فنّ الذّهاب إلى الأبعد، مُصغِيَين بعد المسيح إلى نصيحة القدّيس بولس لهما: "لا يمنع أحدكما عن الآخر إلاَّ على اتفاق بينكما وإلى حين كي تتفرّغا للصّلاة ..." (١ كورنثس ٥/٧). وتبقى هِبة الجسد من مقوّمات الزّواج الرّئيسيّة. لكن، ألَا تزداد قوّة الحبّ بين الزّوجين وقوّة حياتهما الرّوحيّة إذا ما أوقفا أحيانًا صِلتهما الجنسيّة مثلًا، "بناءً على اتفاق بينهما وإلى حين كي يتفرّغا للصّلاة؟ كيف السّبيل إلى ذلك؟

هي النّعمة، نعمة سرّ الزّواج وتذكّرها الدّائم بدل نسيانها وفقدان الإيمان بمعطيها وبمفاعيلها. أليس المسيح نفسه مَن التزم الزّوجَين، على أثر إعلانهما النَّعَم، عند الاحتفال بزواجهما؟ هو يسير برفقتهما على الطّريق منذ تلك اللّحظة، وهو حاضر وفاعل في حبّهما لشفائه من جراحاته وتقويته وتغييره وتجديده بقوّة حبّه بالذّات. ولكن هل يلجأ الأزواج إلى يسوع بانتظام حتّى لو خَلَت حياتهم من الصّعاب، وكم بالحريّ حين تظهر، لكيّ يعضدهم كمخلّص في كيانهم الزّوجيّ ويهبهم نِعمه الشّافية؟

توبة دائمة إلى الرّبّ وإلى الحبيب، وعودٌ على بدء في الحبّ، تثبّت البناء الزّوجيّ على الصّخر، حيث الزّواج التزامٌ في السّرّ، وعهد يتجدّد باستمرار، غير قابل للحلّ وللمؤقّت، بل مع المسامحة والغفران ديمومة لا عودة فيها إلى الوراء. تصبح النَّعَم محطّ الأفكار والأقوال والأعمال، في تألّق يشهد عليه كلّ قاصٍ ودان.

ثمّ يأتي الشّمول، كترجمة عملانيّة للعهود، إذ الزّواج حالة حبّ وصفح مَداهما الآخر بكلّيّته، وليس جزء منه وحسب. نتحدّث هنا عن الجسد والرّوح والعقل، عن كون كلّ منهما مخلوق على صورة الله ومثاله، وقد نالا في العماد الرّوح القدس الّذي يصلّي في كلّ منهما وفيهما مجتمعَين بأنّات لا توصف (روما ٢٦/٨)، والحكمة الّتي تصحب النّعمة، تجعل منهما مرجعًا يُستنَد إلى حنكته ودرايته، لأنّ الحياة مدرسة تُخرّج باختباراتها الحلوة والمرّة، حكماء اشتهرت حكمتهم من جيل إلى جيل.

النّتيجة لحُبّ تائق تائب دائم، هي سعادة أرضيّة، إنّما قبس من السّعادة الأبديّة، فالزواج المسيحيّ بطبيعته يهدف إلى توفير أفضل شروط النّجاح، في السّعي المُشترك للسّيرورة على طريق

القداسة، لأنّها إرادة القدّوس الّتي أفصح عنها داعيًا: "كونوا قدّيسين كما أنّ أباكم السّماويّ قدّوس هو" (١بطرس١٦/١). كيف لا وقد حوّلت التّوبة والمسامحة والغفران الأسرة إلى خليّة كنسيّة شاهدة على عظمة الحبّ وروعته.

٣,٤ خلاصات حُبّيّة

تتعدّد الشّروحات ويبقى الحُبّ واحد. ليس مجرّد عاطفة وحسب، أو انفعالًا مؤقّتًا وعابرًا. هو التزام بعد إقرار بعهد، وهو انتماء ترجمته الواقعيّة انتباه للآخر وحرص عليه. إنّه إصغاء إلى الآخر، وشجاعة في وضع الذّات مكانه، وفهمه ومسامحته إلى أبعد الحدود، والتّيقّن بأنّنا نهمّه. الحُبّ جواب لنداء الآخر وتلبية لحاجاته العميقة. إنّه الحدب عليه ومشاركته الحزن والفرح. بالأحرى هو الفرح لحضوره والحزن لغيابه. وهو السّكن في الآخر وإفساح المجال له ليسكن فيّ، مع الكينونة ملجأً له. بكلمة، الحُبّ هو القوّة المُتحِدة كما يقول القدّيس ديونيسيوس الأريوباجي (موضوعات للدّرس، جماعة فرق السّيّدة للأزواج، لبنان).

على مستوى الجاذبيّة والانجذاب، إذا كان الحبّ انشداد الواحد نحو الآخر، فإنّه أيضًا انشداد الاثنين معًا نحو حقائق الأمور وجوهرها. وهو بالتّالي التّوق إلى أن يحقّق الآخر ذاته تحقيقًا كاملًا تحت نظر الله وفي خدمة مصالحة الآخرين، والتّصميم على البقاء أمينًا لدعوته، حرًا في المحبّة بكلّ أبعاد كيانه. عليه، فالحبّ يقضي بأن يُبدي الإنسان استعداده للتّخلّي عن أفكاره الخاصّة، وعن أحاسيسه الأحاديّة الجانب، وعن رفاهيّته، ودينونة الآخر، وإبداء الاستعداد للمزيد من التّضحيات. فلا نسمح بأن تتجذّر الأنانيّة وتترسّخ في عقلنا الباطنيّ، فتأتي ردود فعلنا مقاوِمة وعدوانيّة ومفتِّشة عن متعتنا الشّخصيّة.

إذا ما رسخت تلك المبادئ والقناعات في داخلنا، يصبح بديهيًّا بالنّسبة لنا أنّ الحبّ ليس عملًا إراديًّا فحسب يلتزم فيه الإنسان بمراقبة حساسيّته وبتجاوزها، هذه فقط بداية مسار نحو مصير متميّز، بل إنّه حساسيّة وقلب مُطهَّران يتّجهان تلقائيًّا بالغفران نحو الآخر. وهذا التّطهير العميق لا يتمّ إلاّ بعطاء من الله وبنعمة تتدفّق من أعماق كياننا حيث يسكن الرّوح القدس: "أنزَعُ من لحمكم قلبَ الحجر، وأعطيكم قلبًا من لحم، وأجعل روحي في أحشائكم" (حزقيال ٢٦/٣٦).

لقد وعَدَنا السّيّد المسيح ووفى بوعده، بأن أرسل إلينا الرّوح القدس "البارقليط" (المؤيّد) لينقل إلينا هذه الطّاقة المُصالِحة الإيجابيّة والمتجدّدة، هذه القوّة وهذه المزايا القلبيّة الّتي تجعلنا قادرين على قبول الشّخص الآخر كما هو- حتى لو كان عدوًّا – وبالتّالي متأهّبين لتحمّل كلّ شيء، وأن نصدّق كلّ شيء، ونرجو كلّ شيء، ونصبر على كلّ شيء(١كورنثوس٧/١٣). يقول جان فانييه في كتابه الجماعة صفح وعيد: "إنّ التدرّب على المحبّة يستغرق حياةً بكاملها، لأنّه يجب أن يدخل الرّوح القدس إلى كلّ تعاريج كياننا وخباياه، إلى كلّ الزوايا التي يعشّش فيها الخوف والقلق والمقاومة والحسد". (جان فانييه، (١٩٩٣)، الجماعة صفح وعيد، تعريب الخوري حليم عبد الله، منشورات المكتبة البولسيّة).

الخاتمة

المصالحة والنّدامة والمغفرة قلب الحياة الزّوجيّة لا بل الحياة المسيحيّة بشكل عام، هي الّتي حين تمارَس في الحياة اليوميّة، تجد في العائلة زمنها الأسراريّ الخاصّ، في التّوبة المسيحيّة. وقد كتب البابا بولس السّادس في رسالته العامّة "الحياة البشريّة" مشجّعًا كلّ المؤمنين وبالأخصّ الأزواج: "إذا كانت الخطيئة لا تزال تكبّلهم، فيجب ألّا يتخاذلوا، بل فليضرعوا دائمًا بتواضع إلى رحمة الله الّتي يفيضها سرّ التّوبة بغزارة" (بولس السّادس (البابا)، (١٩٦٨)، *رسالة الحياة البشريّة*، الفاتيكان، ، الفقرة ٢٥).

ويؤكّد السّعيد الذّكر، البابا القدّيس يوحنّا بولس الثّاني أيضًا، في الإرشاد الرّسوليّ حول وظائف العائلة المسيحيّة، على أنّ الاحتفال بسرّ التّوبة يكتسب قوّة خاصّة بالنّسبة إلى الحياة العائليّة. "ففيما يدرك الأزواج وجميع أعضاء العائلات بالإيمان كيف أنّ الخطيئة تضادّ لا العهد المُبرَم مع الله وحسب، بل أيضًا عهد الأزواج واتّحاد العائلة، فإنّهم ينقادون إلى ملاقاة الله "الغنيّ بالرّحمة" الّذي بإضافته حبّه الأقوى من الخطيئة، يعيد بناء العهد الزّوجيّ، والاتّحاد العائليّ ويكمّلهما" (يوحنّا بولس الثّاني (البابا)، (١٩٨١)، *في وظائف العائلة المسيحيّة*، الفاتيكان، الفقرة ٥٨).

هكذا، "وحده روح التّضحية والتّفاني والغفران والمسامحة والمصالة، يساهم في استمرار وتكامل الشّراكة الزّوجيّة والعائليّة. وهذا ما يتطلّب في الواقع انفتاحًا سخيًّا ومستعدًّا، على التّفاهم

والرّفق والتّوبة الدّائمة، وما من عائلة تجهل كم أنّ الأنانيّة والخلافات والمشاحنات والخصومات، تمزّق هذه الشّراكة العائليّة، وتقضي أحيانًا عليها، هنا حيث تجد مصادرها كلّ الأشكال المتعدّدة والمختلفة للانقسامات في الحياة الزّوجيّة والعائليّة. لكنّ إله السّلام يدعو دائمًا في الوقت عينه كلّ عائلة لعيش اختبار "المصالحة"، المفرح والمجدّد، أي رعاية الشّراكة المستعادة والوحدة المسترجعة. وإنّ الاشتراك على الأخصّ في سرّ المصالحة وفي وليمة جسد المسيح الأوحد، يعطي العائلة المسيحيّة النّعمة اللّازمة والمسؤوليّة المناسبة للتّغلّب على كلّ الانقسامات، والسّعي إلى حقيقة تامّة لشراكة يريدها الله تجاوبًا مع رغبته الحارّة في أن يكونوا واحدًا"(يو١٧/٢١) (المرجع السّابق عينه، الفقرة ٢١).

فإذا ما سارت الأمور على هذا المنوال، استطعنا عندها أن نضمّ صوتنا إلى صوت ترتليانوس، حين كتب إلى زوجته قائلًا: "من أين لي أن أستمدّ القوّة لأن أصف وصفًا وافيًا سعادة الزّواج الّذي تهيّئه الكنيسة وتثبّته وتمهره البركة. الملائكة يعلنونه، والآب السّماويّ يصادق عليه. ما أروعهما زوجَين مسيحيّين يوحّدهما رجاء واحد، ورغبة واحدة، وخدمة واحدة! كلاهما إبنان متصالحان مع بعضهما البعض ومع خالقهما، وخادمان لمعلّم واحد. لا شيء يفرّقهما، لا في الرّوح ولا في الجسد، بل هما، في الحقيقة اثنان في جسد واحد. وحيث الجسد واحد، فالرّوح واحد أيضًا" (ترتوليان، إلى زوجته ٢،٨، ٦ – ٧).

بيبليوغرافيا

المصادر

- الكتاب المقدّس. (٢٠١١). جمعيّات الكتاب المقدّس في الشّرق. دار المشرق. بيروت، لبنان.
- المجمع المسكونيّ الفاتيكانيّ الثّاني. (١٩٦٥). روما.
- التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة. (١٩٩٧). الفاتيكان.

المراجع

- بولس السّادس (البابا). (١٩٦٨). رسالة "*الحياة البشريّة*" . الفاتيكان.
- يوحنّا بولس الثّاني (البابا). (١٩٨١). *إرشاد رسوليّ في "وظائف العائلة المسيحيّة في عالم اليوم"* . الفاتيكان.
- يوحنّا بولس الثّاني (البابا). (١٩٩٤). *رسالة "إلى الأُسَر"* . الفاتيكان.

. جبران خليل جبران، (١٩٢٣)، *النّبيّ*، دار النّهار للنّشر.
. فانييه جان، (١٩٩٣)، *الجماعة صفح وعيد*، تعريب الخوري حليم عبد الله، منشورات المكتبة البولسيّة.
. مجلّة نور وحياة، (١٩٧٥)، لبنان، عدد ٣٢.

المراجع الإلكترونيّة

. https://www.slpj.org
. https://www.chjoy.com/vb/showthread.php
. Thévenot Xavier, (1992), *les péchés-que peut-on en dire*, Broché
. /http://www.peregabriel.com